مكانة التاريخ في الدراسات الاجتماعية

يعد علم التاريخ من أهم فروع المعرفة الإنسانية وأقدمها في الظهور كما يعد من أحد فروع العلوم الاجتماعية التي تضم علوم الجغرافية والتاريخ والفلسفة والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

وقد ظل ينظر إلى التاريخ لفترة طويلة من الزمن على أنه مجرد بحث في الماضي أو تصويره وتدوين أحداثه، أو أنه مجرد تدوين قصصي لمجموعة الأحداث التي تنقل شؤون البشرية التي حدثت عبر العصور السابقة، فهو بالتالي عملية بحث لماضي البشرية بكل جوانبها لكن الوقائع والتطورات والأحداث المتداخلة تشير إلى أن عملية الكشف عن هذا الماضي لا تتم بصورة تلقائية وعرضية، وإنما تتم عن طريق التقصي والبحث والتحليل، ويتوضح هذا بالعودة إلى معنى كلمة تاريخ باللغة الفرنسية (Histoike) والإنكليزية (History) المشتقة من جذرها اللاتيني (WID) وتعني المعرفة والذي يعمل في التاريخ يوصف بالإنسان المجرب أو الخبير الذي يبحث عن الحقائق والوقائع وفق منهجية واضحة ومحددة وعلى هذا فإن مفهوم علم التاريخ وفقاً للنظرة الحديثة لم يعد مجرد نقل الماضي وتصويره وتدوينه بل أصبح ينظر إليه على أنه علم يربط الماضي بالحاضر بقصد توضيحه والبحث المنهجي العلمي عن الحقائق وتفسير أصول المشكلات والأحداث التاريخية وتفسيرها باستخدام التفكير التحليلي الناقد وربط المستقبل بالحاضر عن طريق دراسة اتجاهات التطور والتقدم.

تطور علم التاريخ عبر العصور

لقد اصطلح العلماء على تسمية العصور التي سبقت العصور التاريخية بـ (عصور ما قبل التاريخ) وهي الفترة التي بحثت في تاريخ الإنسان منذ أصوله الأولى حتى ظهور الوثائق الأولى المكتوبة أي ما بعد اكتشاف الكتابة في الألف

الرابعة قبل الميلاد وقد استمدت مصادر هذه الفترة معرفتها من دراسة الآثار والنقوش الصامتة التي ظهرت على شكل هياكل عظمية وألقى وأدوات وكهوف ومعابد ورسوم شكلت جزءاً من المعرفة التاريخية عن تلك العصور: الحجري القديم والحجري الحديث والحجري النحاسي إلا أن التاريخ الفعلي لم يظهر إلا مع ظهور الوثائق المكتوبة.

العصور التاريخية:

تبدأ العصور التاريخية باختراع الكتابة حوالي منتصف الألف الرابع قبل الميلاد وقد قسم المؤلفون هذه العصور إلى ثلاثة أقسام هي: القديمة والوسطى والحديثة وهذا التقسيم هو لغايات دراسية لأن الحوادث التاريخية مستمرة ومتصلة ويصعب الفصل بينها لكن يبقى لكل قسم اتجاهاته وسماته التاريخية التي تميزه عن الاتجاهات الجديدة التي تميز الأقسام الأخرى . وهذه العصور هي:

التاريخ في العصور القديمة:

تمتد العصور التاريخية القديمة منذ اختراع الكتابة حتى سقوط روما عام ٤٧٦م وقد عاشت في تلك الفترة شعوب متعددة كانت لها إسهامات واسعة في القضايا التاريخية منها شعوب الشرق القديم واليونانيون والرومان.

التاريخ عند شعوب الشرق القديم:

اهتمت الشعوب العربية القديمة والعبرانيون التي سكنت في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر مثل الفراعنة والأكاديين والآشوريين والبابليين والكنعانيين والآراميين في تدوين أخبارها وحوادثها الهامة التي كانت تدور بصورة رئيسية حول أعمال الملوك والحكام بالإضافة إلى القصص والأساطير ذات الطابع الديني مثل أسطورة إزيس وأوزوريس في مصر وأسطورة عشتار وأدونيس في بلاد الشام وأسطورة جلجامش وقصة الطوفان في منطقة ما بين النهرين (حموي ، ١٩٨٦ ، ص ١٢) .

وبصورة عامة فقد ظلت الأعمال التاريخية مرتبطة بالمعتقدات الدينية لتلك الشعوب وقد فسرت الحوادث التاريخية تفسيراً دينياً، وكان ينظر إلى الملك على أنه الإله أو ممثل الإله على الأرض فالاعتقاد بتعدد الآلهة كان معروفاً لدى هذه الشعوب وقد ادخل المصريون القدماء فيما بعد فكرة توحيد الآلهة كما أدخلت الأديان السماوية بدءاً من الدين اليهودي فكرة الإله الواحد الذي يسيطر على البشر أجمعين.

وقد ظهرت في تلك الفترة بعض المؤلفات التاريخية أشهرها مؤلفات مانيثون المصري في عهد البطالمة باللغة اليونانية وتاريخ بابل الذي ألفه بروسوس في القرن الثالث قبل الميلاد.

كما شهدت بلاد فارس ومنطقة الشرق الأقصى بعض الكتابات التاريخية التي تدور حول أعمال الطبقات الحاكمة كما ظهرت فلسفات متعددة في نظرتها إلى حوادث تاريخية محددة من أشهرها الكونفوشيوسية التي وضعها الفيلسوف الصيني الكبير كونفوشيوس ٥٥٧-٤٧٩ ق.م والبوذية في الهند ما بين ٥٦٣-٤٨٣ ق.م والزرادشتية في بلاد فارس حوالي القرن السابع قبل الميلاد.

التاريخ عند اليونان:

لعب الشعب اليوناني أو الإغريقي دوراً حضارياً هاماً في تاريخ البشرية وقد استفادت الحضارة الغربية وباقي الحضارات الأخرى من إنجازات الحضارة اليونانية الكثيرة في شتى العلوم ومنها التاريخ وقد ظهرت الكتابات التاريخية الأولى على شكل ملاحم أبرزها ملحمتا الألياذة والأوديسا للشاعر والمؤرخ هوميروس التي روى فيها قصة حرب طروادة وتمجيد بطولات اليونانيين فيها كما اشتهرت أسماء مؤرخين جسدوا في كتاباتهم التاريخية معالم البحث التاريخي منذ القرن الثامن قبل الميلاد ومنهم:

هيرودت: وهو أول من استعمل كلمة تاريخ وقد عاش في الفترة من ٤٨٤-٤٢ ق.م، وقد لقب بأبي التاريخ وألف تسعة كتب سماها (التواريخ) وقد روى منها

قصة الحروب بين الفرس واليونان، وتميز أسلوبه بالسهولة والوضوح (حمدي، ١٩٨٦، ١٥).

توكيديدس: (٤٦٥-٤٠١ ق.م) وقد ألف كتاباً روى فيه الصراع الداخلي بين المدن اليونانية وتميز بنقده للحوادث التاريخية وهو أول من كرس نظرية الرجل العظيم.

ثم جاء هيلانيكوس (٤٧٩-٣٩٩ ق.م) وبوليبيوس الذي عاش ما بين (٢٠٤-١٢٢ ق.م).

وقد تميز التفكير التاريخي عند اليونان بالميزات التالية :

١- سيادة الاتجاه الفني في كتابة التاريخ واعتبار التاريخ من فروع الأدب الذي يستقي موضوعاته من حوادث الماضي.

٢- استخدام الأسلوب القصصي والاهتمام بالنواحي السياسية والحربية التي تتلاءم أحداثها مع هذا الأسلوب.

٣- الاهتمام بالعنصر البشري كعنصر فعال ومؤثر في الأحداث والإيمان بنظرية الرجل العظيم ودوره بالأحداث المؤثرة وتمجيد البطولة والأبطال.

٤- يختلف أسلوب اليونان التاريخي عن غيره من التواريخ القديمة فقد أهمل العنصر الإلهي في التأثير الفاعل في حياة البشر، فالانتصارات والهزائم يصنعها العنصر البشري وقدرة الإنسان نفسه.

التاريخ عند الرومان :

تعد الحضارة الرومانية امتداداً للحضارة اليونانية فقد تأثرت بإبداعاتها في مختلف مجالات الفكر بما في ذلك التاريخ، وفي البدء كتب بعض المؤرخين اليونان عن التاريخ الروماني ومن أشهرهم بوليبيوس ثم جاء مؤرخون رومان استخدموا الأسلوب الأدبي في كتابة التاريخ ومنهم :

بلوتارك: عاش ما بين (١٢٥-٤٣ ق.م) وهو مؤلف كتاب حياة العظماء الذي مجد فيه البطولة متأثراً في ذلك بالمؤرخين اليونان .

سالت: وقد عاش ما بين (٨٦-٣٤ ق.م) وقد سجل أهم الأحداث التاريخية في عصره بالإضافة إلى كتابة بعض الرسائل التاريخية .

تاسيت: عاش ما بين (٥٥-١١٧ م) وقد دون حياة الأباطرة الرومان في قصورهم وانتقد أسلوب حياتهم وعده تدهوراً في أخلاق الرومان وقد تميز الفكر التاريخي عند الرومان :

١- التأثر بأسلوب الفكر التاريخي عند اليونان من خلال اهتمام المؤرخين الرومان بتمجيد الأبطال والعظماء والعنصر البشري .

٢- التركيز على الأخلاق والوصف الأدبي فالتاريخ بالنسبة للمؤرخين الرومان بمنزلة العظات والعبر .

التاريخ في العصور الوسطى :

تمتد العصور الوسطى ما بين عام ٤٧٦م وهو تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى عام ١٤٥٢م وهو تاريخ سقوط القسطنطينية وسوف تتم الإشارة إلى ميزات التفكير التاريخي في أوربا ولدى العرب والمسلمين في هذه الفترة .

ميزات التفكير الأوربي :

أدى انتشار الدين المسيحي في أوربا إلى تنشيط حركة البحث التاريخي والاهتمام بمسألة التطور التاريخي لمعرفة تاريخ الرسل والأنبياء الذين نزلوا قبل السيد المسيح إلى رصد حياة المسيح والاضطهاد الذي تعرض له المسيحيون قبل أن تعترف روما بهذا الدين ثم انتقل الاهتمام إلى البحث في فلسفة التاريخ وكانت أولى هذه المحاولات للقديس أوغستين الذي وضع كتاب (مدينة الله) الذي أوضح فيه أن الحقيقة التاريخية هي من صنع الله وحده وغابت عملية النقد التاريخي عندما تم تبني الاتجاه الميتافيزيقي في تفسير التاريخ والتأثير باللاهوت والميثولوجيا وتعاليم الكنيسة

مما لم يعد علم التاريخ من التغير المستمر لتطور الأحداث التاريخية ، و أصبح التاريخ يتغير بصفة لدوم و اختفت الوظيفة السياسية للتاريخ و أصبح يركز على العلاقات الاجتماعية و التحويف من العقاب المنتظر ، و الاهتمام بفلسفة التاريخ من وجهة نظر الكيفية التي عدت التاريخ محرك حاقق لأعمال الله نحو الإنسان، و قد ظهرت في العصور الوسطى المؤلفات و التراجم و الكتب الخاصة بالوصايا و العقود الملكية .

التاريخ عند العرب و المسلمين :

اهتم العرب قبل ظهور الإسلام في نقل أخبارهم على الرواية الشفهية التي وصلتنا على شكل قصائد شعرية أو على شكل كتابات ونقوش على جدران المعابد و القصور ، كما لم تخلو الأيام و النجوم و الحوادث المهمة في معرفة تاريخهم مثل عام الفيل ، يوم ذي قار ، بناء الكعبة ..الخ .

وبعد ظهور الإسلام احتوى القرآن الكريم على تاريخ الرسالة الإسلامية و رؤية الإسلام للوجود و هو المصدر الأساسي لمعرفة أحداث الدعوة الإسلامية بالإضافة إلى رسائل الرسول محمد (ص) إلى الملوك و شيوع القبائل بدعوهم إلى الدخول في الدين الجديد ، و في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) نشأ التاريخ الفعلي عند العرب المسلمين و ظهر على شكل روايات و قصص نقلها الأخباريون و تضمنت أخبار الجاهلية قبل الإسلام و الغزوات و الحروب التي امتزجت بالخوارق و الأوهام، وبعد أن استقرت الدعوة الإسلامية تم التركيز على أخبار الرسول و أعماله و أحاديثه و غزواته التي نقلها رواة الأحاديث و المغازي، و من أشهرهم (عبد الله بن عمر ، و عبد الله بن عباس) وبعد ذلك تم اتباع منهجية خاصة للبحث التاريخي العربي من خلال جهود محدثين المحققين و علماء اللغة العربية لمعرفة الأخبار و الأحاديث الصحيحة و استقصاء أخبار القبائل و لهجاتها و تعرف الكلمات العربية الصحيحة و البحث في قواعد اللغة و تطويرها، و قد ساعد على تطور المعرفة التاريخية عند العرب المسلمين: التنافس بين العرب و الشعوب الأخرى و ظهور الحركات الشعوبية ، و حركة الترجمة و النقل عن الفارسية و اليونانية و السريانية، و تشجيع الخلفاء و الأمراء

للمؤرخين الذين استلكوا تقانات الكتابة التاريخية الموضوعية، وقد أدى ذلك إلى ظهور الحوليات التي تتناول الحوادث التاريخية سنة فسنة والتاريخ المتسلسل زمنياً وفقاً لتاريخ ظهور الحادثة التاريخية وتدوينها .

كما ظهرت كتب الأنساب لمعرفة أصول نسب القبائل العربية، وكتب التراجم التي تتناول حياة وأعمال أهل العلم والمعرفة مثل كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي وكتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان وكتب الوقائع والحروب وتاريخ البلدان ومن أمثلتها تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وتاريخ دمشق لابن عساكر وكتب التاريخ العام للطبري وابن الأثير وابن خلدون ..إلخ.

التاريخ في العصور الحديثة:

تمتد العصور الحديثة منذ فتح القسطنطينية واكتشاف أمريكا في أواخر القرن الخامس عشر حتى الوقت الحاضر، وقد شهد التاريخ في هذه العصور تطورات هامة في أسلوبه وفلسفته ومنهجيته وتطور فروعه وعلميته. وسوف نستعرض أهم هذه التطورات.

التاريخ في عصري النهضة والتنوير:

ساهمت عوامل عدة في تطوير علم التاريخ في عصري النهضة والتنوير من أبرزها:

- تطور عملية النقد والتحليل التاريخي ويعود ذلك إلى نمو الحركة الإنسانية والعودة إلى الفلسفة والآداب اليونانية والرومانية والتحرر من الفكر الديني والاحتكاك بإنجازات الحضارة العربية الإسلامية، وظهور حركات الإصلاح الديني التي أثرت إيجابياً على تطور التاريخ وبداية استخدام المنهج العلمي في تدوين التاريخ ودراسته.

- الاكتشافات الجغرافية التي ساعدت في تطور المعرفة والبحث التاريخي بالإضافة إلى مجموعة من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، وقد تميز التاريخ في تلك الفترة:

١- تحرر المؤرخين من الطابع الديني وتأثير الأفكار الفلسفية والديلية التي سيطرت على كتابة التاريخ في القرون الوسطى.

٢- اهتم التاريخ بتدوين نشاط الإنسان وأعماله الهامة، وأصبح هدف المؤرخ التثقيف السياسي والاجتماعي.

٣- بعد نشوء الدول الأوربية القومية الحديثة شجع الحكام على تدوين تاريخ دولهم بأسلوب علمي يقوم على الفحص والتحليل ونقد الروايات التاريخية قبل اعتمادها.

وقد ظهر في هذا العصر عدد كبير من المؤرخين من أشهرهم:

مونتسكيو: وهو من كبار المؤرخين والمفكرين الفرنسيين عاش ما بين ١٦٨٩-١٧٥٥ من أشهر كتبه الرسائل الفارسية، روح القوانين وقد انتقد فيها جوانب الحياة الفرنسية في عصره واعتمد التفسير الجغرافي للتاريخ.

فيكو: وهو مؤرخ إيطالي عاش في الفترة ما بين ١٦٦٨-١٧٧٤ من أشهر كتبه (أصول علم جديد) طالب فيه بوضع منهج علمي خاص بدراسة التاريخ، وقد قسم التاريخ إلى ثلاثة عصور: عصر الآلهة، عصر الأبطال، العصر الإنساني.

هيوم: مؤرخ إنكليزي عاش ما بين ١٧١١-١٧٧٦ ألف كتاباً عن تاريخ إنكلترا وقد اعترض على أفكار ديكارت حول التاريخ وأعدّ التاريخ نوعاً من أنواع المعرفة الصادقة.

فولتير: وهو من أشهر المفكرين والمؤرخين الفرنسيين عاش ما بين ١٦٩٤-١٧٧٨ من أشهر كتبه تاريخ شارل الثاني، وعصر لويس الرابع عشر، وهو أول من

لفت الأنظار إلى أهمية التاريخ الحضاري، ومن مؤسسي المدرسة العقلانية التي كانت تهدف إلى تطبيق الثقافة العلمانية في ميادين الحياة الإنسانية.

آدم سميث: عاش ما بين ١٧٢٣-١٧٩٠ وقد اهتم بالتاريخ الاقتصادي، وألف كتاباً تاريخياً اقتصادياً أسماه (ثروة الأمم) لفت فيه الأنظار إلى أهمية العوامل الاقتصادية في سير التاريخ و أحداثه الكبرى.